الإسلام والعقلانية
نحن دعاة العقلانية .. ولكن ! [1]

فى الأسبوع الماضى .. وفى حوارنا حول قضية « الإسلام والعقلانية » تفضل الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوى ببيان أن أعظم قضيتين عقديتين - وهما وجود الله وإرسال الرسل - لا بد من إثباتهما بالعقل .. فالعقل أساس النقل كما يقول علماؤنا .. وأكد أن المسلمين أولى بتمجيد العقل إذا استخدم فى مجاله ..

واليوم نتابع مع فضيلة الداعية الإسلامى الكبير الدكتور يوسف القرضاوى الحديث حيث يقول فضيلته :

« نحن دعاة العقلانية .. نحن المسلمين دعاة العقلانية .. نحن نرفض الخرافات والأباطيل ، ومن خلال هذه العقلية وفى ظلها قامت حضارة إسلامية شامخة جمعت بين العلم والإيمان .. بين العقل والنقل » .

● بمناسبة العقل والنقل .. هل يقع تعارض بينهما ، وكيف يمكن درء هذا التعارض ؟

● ● لم ير علماؤنا إطلاقاً أى تعارض أو تناقض بين صحيح المنقول وصريح المعقول ، وقد ألّف فى ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية كتاباً ظهر فى عشرة أجزاء اسمه « درء تعارض العقل والنقل » .. فلا يمكن أن يتعارض عقل صريح مع نقل صحيح ، وإذا رأيت تعارضاً فلا بد أن ما ظننته نقلاً ليس صحيحاً ، أو ما ظننته عقلاً ليس صريحاً ..

---

(١) نُشر فى جريدة بالدوحة بتاريخ ١٢ يونيه سنة ١٩٨٩

ويستطرد فضيلة الدكتور قائلاً : « لا يمكن لأن العقل أثر من آثار رحمة الله بالإنسان وفضله عليه ، والنقل هو وحى الله للإنسان ، فكيف تتعارض آثار الله بعضها مع بعض ، لا يمكن أن يحدث التعارض إلا من الناحية الظاهرية الشكلية ، لكن عند التأمل لا يمكن أن يوجد تعارض ، ولا بد أن يكون هناك توفيق بين ما يُظن من التعارض أو أن أحدهما ليس صحيحاً ..

فلذلك ليس عندنا مشكلة الدين والعلم ، ما يسمونه بالتعارض بين الدين والعلم ، أو بين العقل والنقل .. لا يوجد عندنا هذا إطلاقاً .. الدين عندنا علم والعلم عندنا دين .. الدين عندنا يقوم على أساس من العلم ، وأول آية نزلت فى كتابنا : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِى عَلَّمَ بِالقَلَمِ * عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (١) .. أول ما نزل على قلب محمد ﷺ .. مادة القراءة والعلم والتعلم والقلم .. فالدين عندنا علم ، والعلم عندنا دين ، وطلب العلم فريضة ، سواء أكان علم دين أم علم دنيا .. حتى علوم الدنيا .. الإسلام اعتبر تعلمها فريضة كفائية إذا كان يحتاج إليها المسلمون » .

● متى يعزل العقل نفسه ؟

ويضيف فضيلة الدكتور القرضاوى : « نحن المسلمين لا نعانى مشكلة عانتها النصرانية فى المجتمع الغربى ، مسألة التعارض بين العلم والدين ، وقامت من أجل ذلك محاكم التفتيش وحرق العلماء وحدث ما حدث .. ليس عندنا شئ من هذا ..

فإذا كانت العقلانية هى هذه فنحن كما قلنا : دعاة عقلانية ، أم إذا كانت العقلانية أن نرفض وحى الله عَزَّ وجَلَّ ، أو نُغلِّب باستمرار العقل على النص ولو كان النص قطعى الثبوت قطعى الدلالة ، فهذا ليس من العقلانية فى شئ ..

---

(١) العلق : ١ - ٥

لأنه كما يقول الإمام الغزالى : إنه إذا ثبت وجود الله بالعقل وأثبتنا النبوّة بالعقل ، وأثبتنا نبوّة محمد ﷺ وأنه لا ينطق عن الهوى ، وأن القرآن كتاب من عند الله .. إذا ثبت ذلك كله بالعقل - يقول الإمام الغزالى فى هذا الوقت : عند ذلك يعزل العقل نفسه ويتلقى من الوحى ..

العقل هو الذى أثبت صدق الرسالة وصدق الوحى وصدق القرآن ، إذن على هذا العقل أن يعزل نفسه ويتلقى ، فما ثبت أنه من الوحى على العقل أن يقول : سمعنا وأطعنا ، وإلا حدث تناقض بين العقل ونفسه .

قد يأتى الدين بشئ فوق مستوى العقل ، ولكنه لا يأتى بما يحيله العقل ، فلا يأتى الدين بما يستحيل عقلاً وإنما بما يستحيل عادة ، والاستحالة العادية أمر يتغير .. كم من أشياء كانت مستحيلة فى عادات الناس .. تغيرت .. لو ذكرنا لأجدادنا منذ عشرات السنين ما يحدث الآن لقالوا : هذا جنون .. أشياء كانت مستحيلة عادة أصبحت عادية نعايشها يومياً » .

* *

● أيها العقل .. قف هنا :

● فضيلة الدكتور .. على ضوء هذا هل هناك مناطق لا يجوز للعقل أن يجتازها .. بمعنى أن عليه أن يقف منها موقف المتلقى .. ؟

● ● قد قررنا أن الدين قد يأتى بما يستبعده العقل ، ولكنه لا يأتى بما يحيله ، فما يأتى به الدين من غيبيات تتعلق بالعالَم غير المنظور ، بالملائكة والجن والشياطين ، بالعرش ، بالكرسى ، باللوح ، بالقلم ، ما يأتى به من أحوال الحياة البرزخية : القبر وما فيه من نعيم وعذاب ، أو أحوال الآخرة وما فيها من بعث وحشر وحساب وسؤال وميزان وصحف وصراط وجنة ونار .. هذه الأشياء على العقل أن يُسلِّم بها ما دام الوحى قد جاء بها ..

فالعقل هنا عليه أن يُسلِّم بهذه الأشياء إذا كان يحترم نفسه ، وإلا كذَّب نفسه فى تصديقه للوحى أولاً .. ثم هناك أشياء ينبغى للعقل أن يُسلِّم بها وهى ما كان مقطوعاً به من ناحية الثبوت ومن ناحية الدلالة ..

ما كان قطعى الثبوت والدلالة فعلى العقل أن يُسلِّم له .. لا يقول العقل : لماذا نصلى فى اليوم خمس مرات ؟ ولماذا لم تكن ثلاثاً أو أربعاً .. ؟ ولماذا كان بعض الصلوات ركعتين وبعضها ثلاثاً وبعضها أربعاً ؟ ولماذا كان الركوع مرة واحدة والسجود مرتين ؟ هذه الأشياء لا يستطيع العقل أن يفصل فيها ، وقد شبهها الإمام الغزالى بالأدوية التى يصفها الطبيب للمريض ، لا يستطيع المريض أن يفهم لماذا يجعل الطبيب هذا الدواء قبل الأكل وهذا بعد الأكل ، وهذا حبة واحدة وهذا حبتين .. شرح هذا لكل مريض فوق مستواه .. والعبادات أشبه بأدوية روحية للإنسان ، فعلى الإنسان إذا سَلَّم بمعرفة الطبيب وخبرته أن يقول : إن هذا لا يخلو عن حكمة ، قد يعرف بعضها ، وقد يغيب عنه بعض آخر .

فهناك أشياء ينبغى أن نُسلِّم بها كمجال الغيبيات ومجال العبادات ، حتى الأحكام الشرعية .. هناك أحكام قطعية هذه لا ينبغى للناس أن يعملوا فيها عقولهم بزعم أنهم أدرى بمصالحهم .. لا .. إنهم أدرى بمصالحهم ولكنهم ليسوا أعلم من رب العباد بالعباد : ﴿ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ﴾ [1] » .

ويضيف فضيلة الدكتور القرضاوى قائلاً :

« كثيراً ما سقط العقل الإنسانى فى ورطات عديدة .. بعض الناس فى وقت من الأوقات بعقولهم قالوا : لماذا لا نبيح البغاء .. بدلاً من أن نترك الناس يزنون بعيداً عن إشراف الدولة ، لننظم الزنا .. وليكن تحت إشراف الدولة .. وأناس إلى الآن يريدون إباحة الخمور ، وحتى مع اكتشاف العقل الإنسانى لمضرة الخمر بالفرد وبالأسرة والمجتمع والاقتصاد ومضرتها بالعقل وبالأخلاق مع هذا يستسلم العقل أمام الهوى .

● العقل فى حاجة لمعين :

فالذين يريدون أن يُخضعوا النصوص لعقل الإنسان هؤلاء مخطئون ولا يمكن أن يترك العقل وحده .. العقل فى حاجة إلى معين كما بيَّن ذلك الإمام محمد

---

(١) البقرة : ١٤٠

عبده فى « رسالة التوحيد » حيث أشار فى هذه الرسالة إلى أن العقل فى حاجة إلى معين يعينه لأنه أحياناً تكتنفه أشياء تُلَبِّس عليه الأمور » .

ويستطرد فضيلته قائلاً :

« وبقى فى القضية مسألة مهمة وهى : إذا قلنا العقل فعقل مَنْ ؟ عقل الخواص أم عقل العوام .. لقد رأينا الفلاسفة يختلفون بعضهم مع بعض إلى حد التناقض ، هذا يثبت وهذا ينفى .. هذا يبنى وهذا يهدم .. فمَنْ معه الحق منهم : الفلاسفة المثاليون أم الواقعيون ؟ الماديون .. أم الإلٰهيون .. ؟ أى الفلاسفة ؟ هذا رأيناه .. فالعقول تختلف .. رأينا العرب قبل الإسلام عقولهم أجازت لهم أن يئدوا البنات .. الإنسان يئد ابنته .. أى عقل هذا .. ؟!

لذا نقول : إن العقل الإنسانى وحده لا يؤمَن أن يُترك وحده ، وإنما ينبغى أن يؤيَّد وأن يصان بوحى اللّٰه تبارك وتعالى ليسدد خُطاه ويعصمه من الزلل حتى يستمر فى الطريق المستقيم ، فالعقل بدون وحى مُعرَّض للخطأ والخطل والخطر كما رأينا الذين مشوا وراء عقولهم وحدها بعيداً عن هدى اللّٰه تعالى .. هذا ما ينبغى أن يُفهم فى هذه القضية الكبيرة : قضية « العقلانية » بعيداً عن الإفراط والتفريط .

* * *